

في نطاق بحثنا عن بيئة المغول وحياتهم الاجتماعية . سوف يكون موضوع ما نتكلم عنه في هذا العدد ، وهو الديانة التي كان المغول يعتنقونها قبيل ظهورهم على مسرح أحداث التاريخ ، وما صاروا إليه بعد أن خضعت لسلطتهم أم وشعوب ذات أصول مختلفة وحضارات متباينة .

المغول الوحدانية

بقلم الدكتور : سعد حذيفة الغامدي

لا يكاد

يخلو أي مجتمع من مجتمعات الدنيا ، في أية بقعة من بقاع الأرض . من شعور أفرادها بالتقديس والتبجيل والاحترام لأي شيء ، خفيًا كان أم مرئيًا . جمادًا كان أم حيوانًا . حتى أنه قد يكون ذلك الشيء إنسانًا ، كما كانت عليه حالة مصر وفراعنها . ثم يكون ذلك الشيء هو رب ومعبود لأفراد وجماعات ، أي مجموعة من البشر يقطنون أرضًا . وقد يكون الدافع لهذا المعبود ، إما الخوف منه . فيُعبَد لانتقاء شره ، وإما لأنه مصدر شيء يعتمد ذلك المجتمع عليه . أو أن يكون - حسب اعتقادهم - حاميًا ومدافعًا لهم ضد شيء آخر يعتقدون الشرف فيه أو الضرر منه . فيعبدون ذلك ليدفع عنهم الشر . والمغول مثلهم في هذه الظاهرة مثل أي مجتمع آخر .

وأول من طرق هذه الناحية من مؤرخينا المسلمين ، هو ابن الأثير - رحمه الله - في معرض كلامه عن المغول ، وعن ابن الأثير نقل من جاء بعده . وقد ذكر مؤرخنا هذا بأنهم يسجدون للشمس عند طلوعها^(١) . وكما قلنا من قبل ، إن ابن الأثير لم يكن يدون معلوماته عن المغول أو عمن يسميهم «التتار» عن اطلاع مباشر ، أو نقلاً عن شاهدي عيان ، سواء أكان ذلك مباشراً أم غير مباشر ، بل كان يدون ما يعرفه عنهم معتمداً على ما كان يسمعه ، أو تناقلته الأخبار^(٢) . إذ أن رواية ابن الأثير هذه تشير بوضوح إلى أن معبود المغول يتمثل في الشمس ، ويتخذون منها إلهاً لهم ، يعبرون عن عبادتهم وتقديسهم لها بالسجود عند طلوعها من المشرق . ومع ذلك فإن كلام مؤرخنا ليس خطأ بالكلية ، حيث أن الشمس تُكوّن واحداً من المعبودات لدى مجتمع المغول ، كما سيأتي ذلك بعد قليل .

وقد اعتمدتُ في إعداد هذا البحث ، وفي هذا الموضوع بالذات ، على مراجع كتبنا مؤرخون عاشوا مع المغول . فبعضهم عاش طوال حياته ، أو معظم حياته ، والبعض الآخر سكن بين ظهرانيهم مدة كَفَفَتْه ليدون معلوماته عنهم بكل دقة ، وعن تجربة شخصية . وهؤلاء المؤرخون هم : «الحويي» و«جون الكريني» و«وليم الوريكي» وغيرهم ، وسيرد ذكر تلك المراجع تباعاً كل في مكانه المخصص له .

أول أولئك المؤرخين هو «جون البيلانو الكريني» ثم جاء بعده «وليم الوريكي» ، فيذكر كل من الرحالتين أن الشمس تُكوّن واحداً من عدة أشياء يعبدها أفراد المجتمع المغولي . ومع ذلك فإن المغول يعبدون إلهاً واحداً ، فهم يؤمنون بأنه هو الخالق لكل الأشياء المادية وغير المادية . وإنه هو وحده مُوجد ومُعطي جميع الأشياء الطيبة في هذه الدنيا ، كما أنه هو الذي أوجد الضيق ، والحُرمان ، والمشاق ، وما يتعرض له الإنسان من أضرار . ويعتقد المغول بأن ربهم المعبود يتربع فوق تلك السماء الزرقاء باسم «تَنكُري»^(٣) .

على الرغم من اعتقاد المغول في هذا الرب ، إلا أنهم لا يعبرون عن عبادتهم لذلك الرب ، بخالد والمعطي في السماء ، من الصلوات ، أو الدعاء في مكان مخصوص ، أو القيام بعمل

احتفال معين لهذا الغرض ، أو بطقوس من أي نوع . ومع أنهم يؤمنون بالرب الذي في السماء ، فإن هذا لم يمنهم من اتخاذ أوثان وتماثيل مجسدة في صور الآدميين ، مصنوعة من اللبود أو من مواد غيرها ، كالحرير مثلاً ، فيقومون بوضع هذه التماثيل على جانبي مدخل المنزل ، وإلى أسفل هذه الصور يضعون تماثلاً مصنوعاً أيضاً من اللبود وعلى هيئة الفرع . وهم يعتقدون أن هذه الصور ما هي إلا حراس لمواشيهم ، والتي تهب لهم نعمة الحليب ، والتي تلد لهم العجول ، وفوق هذا «المهورة» وهي أغلى حيوان لدى المغول .

لهذا نجد أن المغول يعظمون هذه التماثيل ، ويُجلُّونها إجلالاً كبيراً . وقد يضع المغولي بعضاً من هذه التماثيل خارج منزله أمام الباب في حرية جميلة مزينة الحجم مغطاة ، فإذا ما أقدم شخص على سرقة أي شيء من هذا المنزل ، فإنه يقتل دون رحمة أو رأفة به أو بذويه . كما يصنعون تماثيل لرؤسائهم وخاناتهم ، فتوضع خارج المنازل ، وتقدم لها القرابين ، لأسباب سيرة معنا ذكرها .

وعندما يرغب المغول في صنع شيء من هذه التماثيل ، فإن السيدات الكبار مختلف الأسر يقمن بعمل اجتماع فيما بينهن ، حيث يتجزن صنع تلك التماثيل ، وعند الانتهاء من هذا العمل يلذبن شاة فياً ككلون اللحم ، ويحرقون عظامها بالنار .

وعندما يصاب طفل بمرض ، فإنهم يصنعون له تماثلاً صغيراً من هذا النوع ، ويضعونه بجانب فراش ذلك الطفل المريض علّه يتأثر للشفاء . كما يحتفظ رؤساء العشائر ، وكبار المجتمع المغولي ، وكبار القادة العسكريين بشيء من هذه التماثيل ، فتوضع في مكان خاص - عادة في وسط المنزل - وتجسد هذه التماثيل صوراً لأشخاص كانوا قد ماتوا ، إذ يقوم ابن الرجل المتوفي ، أو المرأة المتوفاة ، أو أن تقوم امرأة الرجل المتوفي ، أو أي شخص مات له عزيز ، بصنع تماثيل له أو لها ، ويوضع في أي مكان من هذه الأماكن (خارج أو داخل أو في مدخل المنزل) وذلك للاحترام ، والتبجيل لعين الشخص المتوفي ، وهي لا ترمز بأي حال من الأحوال للرب «تنگري» أو للعبادة له في السماء ، لأن الرجل العراف - وهذا ما ستكون عنه

فما بعد - يقول : «إنا لا نصنع هذه المجسمات للرب ، ولكنه عندما يموت رجل غني من رجالنا ، فإن ولده أو زوجته ، أو أي شخص عزيز لديه ، يصنع له تمثالاً على هيئة ذلك الرجل الميت ، ويضعه هنا ، لذلك فإننا نجلها إحياءاً لذكراه فقط»^(١)...

وعندما يصنع المغول حفلة لأي مناسبة كانت (زواج أو احتفال بأول الشهر مثلاً) فإنهم يأتون بتلك التماثيل ، ثم يأتون لزيارتها ، فيحنون أمامها عند الدخول ، ويحلقونها ويقدمونها ، ولا يسمح لأي إنسان غريب قط بالدخول عليها^(٢) .

أما ما رواه لنا «ماركوبولوف» في هذا الشأن فلا يكاد يختلف كثيراً عما أورده «وليم اليرمكي» حيث يقول : إن المغول يقولون بأنه يوجد إله سماوي ، سام ورفيع ، ويسألونه كل يوم بتلف صادق ، أن يمن عليهم بالصحة وفهم أفضل لما يحبه . ويذكر هذا الرحالة بأنهم لا يعبدون الأصنام ، وإن من آلهتهم إله الأرض ، فهو الذي يعني بنسائهم وأولادهم ومواسيهم ، ومحصولاتهم الزراعية^(٣) . ومن أجل ذلك فإنهم يعظمونها ويحلقونها كثيراً . ولهذا فإن كل واحد منهم يضعه في أحسن وأفضل مكان داخل منزله . ويصنعون هذه الآلهة من اللبود ، ومن أنواع كثيرة أخرى من القماش .

ويعتقد المغول - حسبما أورده ماركوبولوف - أيضاً بأن الآلهة تلك لها زوجات ، ولها أولاد ، فيصنعون لها تماثيل أخرى صغيرة ، ويقولون بأنهم أولاد تلك الآلهة ، كما يصنعون لها تماثيل تقوم مقام الزوجات . فيضعون الزوجات إلى الجانب الأيسر من الآلهة ، كما يوضع الأطفال أمام أبيهم ، وهم في وضع احترام لوالدهم . وعندما يجhezون وجباتهم الغذائية الثلاث ، وقبل أن يشرعوا في تناول أية وجبة منها ، فإنهم يأخذون قليلاً من المرق أو الماء الذي طبخ فيه اللحم ، فيفسلون به أفواه التماثيل ، ثم ينضحون شيئاً منه أيضاً خارج المنزل أو الغرفة التي فيها الآلهة ، إكراماً لها ولأرواح أقرباء الأسرة المتوفين الآخرين . وبعد الانتهاء من هذه العملية ، أو الطقوس الدينية ، فإنهم يشرعون في الأكل قائلين بأن تلك الآلهة قد أخذت ما ينقصها من الوجبة الغذائية المعدة لأفراد الأسرة^(٤) .

ومن القرابين التي تقدم لتلك التماثيل والصور «الحليب» إذ أن حالب الفرس أو البقرة أو غيرها ، يبدأ بتقديم أول حلبة من ذلك الحيوان لها . كما يقوم المغول بإعطاء تلك الآلهة شيئاً من طعامهم أو شرابهم - كما سبق القول - قبل الشروع في تناول ذلك الأكل أو الشراب . وحينما يذبحون حيواناً - من أي نوع كان - فانهم يقدمون قلب تلك الذبيحة في كأس كقران لذلك التمثال الموجود في داخل العربة الصغيرة التي ترض خارج المتزل ، ويظل القران أمام ذلك التمثال حتى صبيحة اليوم التالي ؛ حيث يؤخذ ثم يطبخ ويأكلونه .

ومن القرابين الأخرى عند المغول الخيول وغيرها من حيواناتهم ، فتقدم على شكل أوقاف - ان صح لنا استخدام هذا التعبير - فالخيل التي توقف لتلك الآلهة تصيح محرمة ، لا أحد يركبها حتى تموت . أما الحيوانات الأخرى الموقوفة ؛ فانه عندما يذبحها المغول بغرض الأكل فانهم يأخذون عظامها لثلاثتهم ، فيحرقونها في النار . أما الإهاب فهو الجزء الوحيد من ذلك القران الذي يقدم قرباناً لآلهتهم «تنكري» . وهذا ما استخلصه الأستاذ الدكتور : ج. أ. بويل ، من مقالة له حول «كيفية تقديم الحصان كفداء عند المغول في القرن الثالث عشر والرابع عشر» حيث يقول : «بأن من الاشياء التي تقدم قرباناً إلى «تنكري» جلد أو إهاب الحصان الذي يذبح على قبر من مات حديثاً ، فيؤخذ ذلك الإهاب ويعلق على عمود قائم يراد التقرب به إلى ذلك الرب ، كما أن المغول ينحنون أمام تلك التماثيل متوجهين جهة الجنوب ، كما أنهم يجبرون أي غريب قدم إليهم بالانحناء لتلك التماثيل^(٨) .

وبالإضافة إلى هذه الطقوس والقرابين التي تقدم لتلك الصور والتماثيل ، فإن أفراد المجتمع المغولي يحلون أشياء أخرى . من هذه الأشياء - كما قال مؤرخنا المسلم ابن الأثير - الشمس هذا بالإضافة إلى القمر، والنار، والماء ، والأرض . ويعبرون عن تيجيل وتقديس هذه الأشياء بتقديم الطعام والشراب لها أولاً وقبل أن يأكلوا أو يشربوا وبخاصة في باكورة يومهم ؛ أي في الصباح . ان هذا النوع من التعبد المبسط يكاد يكون النقط العام المتبع لدى كل مجتمع بدوي ؛ حيث يتأثر بما يراه في حياته اليومية في السهول المنبسطة ، من أجرام سماوية ، وما يطرأ عليها من تغيير ، وما يحدث في السماء من برق ، ورعد ؛ ثم ما ينتج عنها من عواصف وأعاصير .

فكل هذه الأشياء خلقت لدى الفرد البدوي - وبخاصة المغولي - الخوف والرهبة أمام هذه الأشياء ، كما خلق عنده تقديس وتبجيل الكثير منها ^(١) .

فعندما يكون القمر هلالاً ، أي في أول ليلة من ليالي الشهر ، أو عندما يصير بدرًا ، فإن المرء المغولي يشرع في أي عمل أو مهام يريد أن ينجزها . لهذا فالغول يسمون القمر «الإمبراطور العظيم» ، وينحنون إليه ، وذلك بشي الركبتين ، ويصلون له ، كما يقولون عن الشمس بأنها أم القمر ، لأنها تحده بالنور الذي تراه عليه .

أما بالنسبة لعبادتهم للنار ، فإنهم يعتقدون بأن أي شيء ، حيوان أو إنسان أو جراد ، لا يطهر إلا بالنار . لذلك فهي آلهة متقاة لكل شيء من كل شائبة ، أو أي ضرر ، أو أي أعمال سحرية ربما تكون قد أودعت في ذلك الشيء . لهذا ترى المغول يحرقون كل فرد من خارج مجتمعهم ، قدم إليهم لأية مهمة كانت ، سياسية أو تجارية أو دينية ، أن يمرروه بين نارين متقدتين ، ومعه ما كان يحمله من هدايا أو منافع مها كانت مرتبته أو مركزه الاجتماعي بين قومه . لأن النار - في زعمهم - تنقيه من أية شائبة عالقة به ، كالسم أو السحر أو الشعوذة ، أو من أي عمل قد يراد به الضرر للرئيس المغولي ، أو لأي فرد منهم ، أو الإضرار بحيواناتهم . وعندما يصاب أي إنسان منهم ، أو حيوان من حيواناتهم بشهاب من السماء ، كضربة نارية من برق (وهذه الأشياء تحدث في منغوليا بكثرة نظرًا لشدة تطرف المناخ) فإنهم يعتقدون أن ذلك الإنسان أو الحيوان غير طاهر وأنه نجس ، لهذا فانه يتحتم عليهم أن يطهروه بالنار ، وذلك بأن يجعلوه يمر بين نارين .

أما ما يعتقد المغول عن الآخرة فيقول «جون الكوريني»: إنهم لا يعرفون عن الآخرة الشيء الذي يعرفه هو ، ولا عن العذاب السرمدى بعد الموت ، وما يمرى لهم في الحياة الآخرة . ولكنهم يعتقدون بأنه بعد المات ، سوف يعيش المرء منهم حياة ثانية في عالم ثان ، وأن مواشيه وحيواناته سوف تنضاعف وتزيد أعدادها ، وأنه سوف يأكل ويشرب ويقوم بجميع الأعمال التي يقوم بها في هذه الحياة الدنيا ، وأنه سيكون له أسرة ، وسيصبح في مجتمع عالم آخر ، كما

كان عليه حاله في عالمه الأول أثناء حياته^(١٠) وهذا ما ستتكلم عنه في «اعتقاد المغول في الحياة الآخرة» .

● تسامح المغول الديني ●

بعد أن ظهر المغول من عزلتهم الاجتماعية ، وسيطروا على شعوب ذات أديان مختلفة وتحمل شتى ، لم يثبت أن القادة المغول أجبروا أمة من الأمم أو مجتمعا من أخضعوهم تحت نفوذهم باعتناق الديانة المغولية ، أو إجبارهم على اتباع دين بعينه من أديان الأمم التي كانت خاضعة لهم ، فقد عرف عن المغول التسامح الديني ، فتركسوا لشعوب الدول التي غزوها الحرية في اتباع الدين الذي يرتضونه ، بل نجد أن المغول أنفسهم يتأثرون بديانات تلك الشعوب التي خضعت لهم ، بمعنى أن المغولي ترك دين الآباء والأجداد في داخل وطنه الأصلي في منغوليا ، واعتنق دين البلد الذي نزل فيه بالغزو .

أما ما كان يجري في داخل البلاط المغولي ، فقد كانت العاصمة المغولية «قرا - قروم» مكتظة بأناس من أتباع ديانات مختلفة (سماوية كالدين الاسلامي والديانة المسيحية واليهودية أو وثنية كالشامانية والمغولية ، والبوذية ، والمناوية ، والزرادشتية ، والكونفوشوسية) ، وكان أتباع كل دين ، أو مذهب وثني قد صنع له مكانا يتعبد فيه بالطريقة التي يرتضيها ، ولديه أوامر الخان الصارمة بالألا يحاول أن يتناول أو أن يلحق الأذى بأتباع أي مذهب أو دين آخر . وكانت عقوبة ذلك الجرم هي الاعدام ، دون ما شفقة أو رحمة .

كان الخانات المغول يأمرهم بعقد اجتماعات دينية في مجالسهم ، يحضرها كبار رجال الديانات السماوية وغير السماوية ، التي سبق ذكرها ، فيتناظرون ، وكل عالم في دينه يبرز ما لديه من حجج وبراهين على صحة معتقده ، فيحاول قصارى جهده الظهور على خصومه ، ولم يثبت أن الخان تعصب لدين معين ضد آخر . وتقول التقارير في هذا الخصوص ، إن الخان كان يصدر أوامره الصارمة ، قبيل أن تبدأ المناظرة الدينية من هذا النوع ، بالألا يسيء أحد إلى أحد ، وإلا فإن صاحب الاساءة سوف تنزل به عقوبة الموت .

بمحدثنا الرحالة «وليم الرويكي» وقد شاهد هذا النوع من المناظرة الدينية ، وقد جرت بين علماء الدين الإسلامي وأتباع الديانة المسيحية والبوذية ، إن «منكوكا آن» دعا إلى هذه المناظرة ، وأنه أصدر أوامره إلى المناظرين سلفاً ، وقبل أن تبدأ المناقشة ، بالألا يتجرأ أحد على التعدي على أحد وألا يتناول على خصمه ، أو أن يسيء إليه بأية كلمة نابية ، وألا يحدث ما يعوق المناقشة ، ومن فعل شيئاً من هذا فإن عقوبة هذا الذنب هي الموت^(١١) .

ثم بعد تلك المناقشة الدينية ، بين علماء الأديان في بلاط «الفا آن» في عاصمة المغول «قرا - قروم» نجد أن الخان يعلن أمام المجتمعين عن طبيعة معتقده ودين المغول ، فلا يحير أحداً على اتباعه ، حيث يقول : «نحن المغول نؤمن بأنه لا إله إلا رباً واحداً ، به غيا ، وبه نموت ، وإليه نتجه بقلوب مستقيمة ، ولكن بما أن الرب خلق أصابع مختلفة لليد الواحدة ، فإنه كذلك أعطى للناس طرقاً مختلفة (في كيفية التعبير له عن عبادتهم تجاهه)»^(١٢) .

بمحدثنا الجبوي أيضاً في هذا الشأن ، عن التسامح عند المغول في حرية الأديان والتدينين ، فيقول : إنه على الرغم من أن الخان المغولي (وهو يعني «جنكيز خان») لم يكن متاصراً لأي دين على آخر ، كما لم يكن من أتباع أية ملة بعينها^(١٣) ، فقد تحاشى كل تعصب ديني أعمى ، وتجنب تفضيل دين على دين أو رجحان بعضها على البعض الآخر . بل إن رجال العلم وزهاد كل طائفة دينية أو مذهبية في حقيقة الأمر ، كانوا يحظون منه بكل إكرام وإعزاز وتبجيل . فكما أنه ينظر إلى المسلمين بعين التبجيل والتوقير ، فإنه كذلك يُكَيِّنُ تقديراً عالياً لأتباع الديانات الأخرى ، المسيحيين ، وعباد الأوثان على حد سواء^(١٤) .

ونظراً لتلك السياسة التسامحية التي كان ينتهجها القادة المغول ورجالهم فإننا نجد أنهم قد تأثروا بغيرهم من الأمم والشعوب التي أخضعت لهم ، وأصبحت جزءاً من إمبراطوريتهم الواسعة ، فالزعماء المغول وبنو جنسهم ، والذين فتحوا الأراضي الصينية (الشمالية منها والجنوبية) وافند الصينيه ، أصبحوا من أتباع ديانات تلك الشعوب ، كالبوذية ، والكونفوشيوسية الصينية وغيرها . كما أن أولئك الذين أخضعوا أجزاء كبيرة من أراضي العالم

الإسلامي ، اعتنقوا الدين الإسلامي وبخاصة أحفاد «جنكيز خان» من أسرتي جوتشي خان (وهو الابن الأكبر للخان المغولي). وكونوا لهم دولة إسلامية في أقاليم القبتشاق ، وهي التي عرفت في التاريخ باسم «القبيلة الذهبية» ومن أسرة «تولي خان» (وهو الابن الأصغر لجنكيز خان) وهم الذين كونوا لهم دولة إسلامية أيضاً في إيران والعراق ، وعرفت في التاريخ بـ «البلخانيين» . وكذلك اعتنق الإسلام أحفاد «تشتاي» (وهو ابن «جنكيز خان» الثاني) في إقليم ما وراء النهر والتركستان . وقد كان للمغول المسلمين الفضل الكبير في إنشاء دولة إسلامية في شبه القارة الهندية ، وإنشاء حضارة إسلامية في تلك البلاد المترامية الأطراف .

وبالإضافة إلى ذلك ، نجد أن المغول الذين حكموا في أقاليم أواسط قارة آسيا ، اعتنقوا الديانة المسيحية ، على المذهب النسطوري ، المنتشر هناك منذ ما يقرب من أربعة قرون سابقة . بينما نجد أن أولئك الذي ظلوا في منغوليا ، بقوا على ديانة الآباء والأجداد .

يحدثنا «الجويني» قائلاً: إن العديد من أبناء وأحفاد جنكيز خان قد اختاروا الديانة التي ارتضاها كل واحد منهم ، حسب ميوله ، وما يراه هو أنه صائب ، فبعضهم اختار الإسلام ديناً له وآخرون اعتنقوا المسيحية ، وبعضهم انتقى الديانة الوثنية ، كما أن قوماً غيرهم ظل متبعين بديانة الآباء والأجداد وملتمين بها ، ولم يجد إلى غيرها من الديانات الأخرى ، وهذه الفئة أصبحت الآن أقل المجموعات الأخرى . ومع ذلك ، فرغم أنهم قد تبنا ديانات كثيرة مختلفة ، فإن الغالبية الساحقة منهم كانت تتجنب كل ما من شأنه إظهار تعصب ديني أو مذهبي ، ولم ينحرفوا عن «ياسا جنكيز خان» يعني اعتبار جميع الأديان كلين واحد في المعاملة ، دون تمييز بينها ، أو تفضيل واحد على الآخر^(١٥) .

إن سياسة التسامح الدينية التي كان يتبناها «جنكيز خان» وأبناؤه وأحفاده من بعده ، ثم ما رواه لنا الرحالة الغربيون - في هذا الشأن - ثم ما ذكره الجويني في روايته السابقة - من أن هؤلاء المؤرخين دونوا معلوماتهم عن ديانة المغول كشاهدي عيان - كل ذلك يناقض بالكلية ما

أوردته المؤرخ الأرمني المسيحي «ابن العبري» حول سياسة جنكيز خان التي يدعي المؤلف بأنها كانت محمية مع الديانة المسيحية ، وأنه كان يميل مع أتباعها على حساب أتباع الديانات الأخرى^(١١).

● ما يعتقد المجتمع المغولي في حياة الفرد الثانية بعد الموت ●

١ - الوفاة :

من العادة التي كانت وما تزال متبعة في المجتمع المغولي البدوي أنه إذا أصيب فرد من الأسرة بمرض وأصبح لا يطيق الخروج من منزله ، فإنه يستلقي في داخل عربته المتزلية أو داخل خيمته المنصوبة على الأرض ، ثم يضع أقرباؤه علامة - شبيهة بالراية أو العلم - على مسكنه ، حيث يرقد المريض على فراشه ، لتشير على أن في داخل ذلك المنزل مريضاً . ومن العادة ألا يسمح لأحد بالدخول عليه للزيارة ما عدا من يقوم بخدمته والإشراف على العناية به ، وذلك اعتقاداً منهم بأنه قد تدخل مع الزائر روح شريرة أو ربيع قد تصيب المريض بالأذى أو تزيد من مرضه ، وتصبح مسألة شفائه ميثوساً منها . ثم يظل المريض على تلك الحالة حتى يشفى .

أما إذا تفاقم مرضه ، أو كان قد أصيب بمرض عضال وتمكن منه ، وأصبحت بعدها الآمال في شفائه قد تلاشت . فإنهم ينصبون عنده حربة أو رمحاً ، ثم يلقون حوله لبدًا أسود . ومن تلك اللحظة لا يستطيع أي شخص أجنبي أن يمرؤ على الاقتراب من مسكنه أو مساكن ذويه ، كما لا يسمح لأحد بزيارته . وحينما تأتي ساعة الاحتضار ، وتشتد سكرات الموت ، فإن جميع الحاضرين من أقرباؤه يتركونه وحده حتى يموت ، ومن ظل عنده حتى وفاته من واجبه ألا يذهب إلى محيم الرئيس ، أو مساكن الخان المغولي ، كما أنه لا يسمح له بذلك إذا أراد ، حتى ينقضي ذلك الشهر الذي كان قريبه قد توفى في أيامه ، ويبدأ شهر جديد .

وعندما يتوفى ذلك المريض ، فإن أقرباءه يبدءون مراسيم النياحة عليه ، ويفعلون ذلك بأصوات مرتفعة ، وييكون عليه لمدة ثلاثين يوماً ، أو أكثر أو أقل ، ومن واجب المجتمع تجاه أسرة ذلك المتوفى أن يعفوها من أي التزام تجاه العشيرة ، أو الدولة حتى تنقضي تلك السنة التي مات قريبيهم فيها .

أما إذا كان المرء من الأسرة قد بلغ من السن عتياً ، وأخذت منه الشيخوخة كل مأخذ ، فيقتضى عليه بصورة متعمدة . وحول هذا الموضوع يتحدثنا «فينست اليوفيز» بأن بعض الأبناء السيئين من المغول وبعضاً ممن يدين بالمسيحية أيضاً ، يقومون باعطاء آبائهم المتقدمين جداً في السن بعض المواد الدهنية - وغالباً ما تكون من ذبول الأغنام «الإلية» - ليأكلوها . لذلك فإن تلك الدهنيات تحمد قواهم المتداعية ، فيؤدي بهم ذلك إلى اختناقهم بسهولة . وعندما يموت ذلك الأب فإنهم يقومون بحرقه ، وبعد ذلك يجمعون الرماد الناتج من حرق الجثة ، حيث يحتفظون به كشيء غال لديهم . وقيل الشروع في أكل الوجبات اليومية يدرون شيئاً من ذلك المسحوق على طعامهم^(١٧) .

أما ما يؤرثه الميت ، فإنه يعطى لورثته ، فإن لم يكن له وريث من ذويه فيعطى إلى أحد غلمانه أو خدمه أو عبيده ، لأن ما يؤرثه الميت يعتبره الآخرون شيئاً منحوساً ونكدًا ، لا يجوز أن يأخذه أحد من المجتمع ، أو أن تأخذه السلطة القائمة^(١٨) .

٢ - مراسم وطقوس الدفن :

(أ) كيفية دفن الفرد العادي : بعد وفاة المرء ، تؤخذ جثته إلى العراء . خارج المساكن ، حيث يتم دفنه في أي مكان يراه المشيعون مناسباً لحواراة جسده . وهناك يحفرون حفرة كبيرة ، حسب مكانة الشخص ، لتسع للجثثان وما يدفن معه من متطلباته التي يعتقدون أنه سيحتاجها في حياته الثانية . ويتم دفن الرجل العادي بشكل أبعد ما يكون إلى السرية ، تماماً بعكس الوضع في حالة وفاة الحان - كما سيرد ذلك ، ويدفن معه واحد من بيوته - إن كان يملك أكثر من منزل - حيث يحنسونه في وسط البيت ، ثم يضعون أمامه طاولة طعام ، واثاء مملوءة

بالحم ، وقدحاً مملوءة أيضاً بحليب فرس . كما يدفنون معه فرساً ، ومعها مهرها ، وحصاناً وعليه لجامة وسرجه ، وكامل عدته . ثم يذبحون حصاناً آخر على قبره ، فيسلخون جلده ، ويأكلون اللحم ، ويأتون بجلده ، فيملئونه قشاً ، ويحعلونه واقفاً على أعمدة ، عمودين أو أربعة أعمدة على القبر . أما عظام الحصان المذبح ، فتؤخذ مجموعة ثم تحرق بالنار - اعتقاداً منهم - على روح المتوفي .

أما إذا كان الشخص المتوفي من التامس الأغنياء والموسرين ، فلا تختلف مراسم دفنه عن الرجل العادي أو المغمور اختلافاً كبيراً ، إلا أنه يدفن في أغلى وأجمل لباس كان يمتلكه ، ويتم دفنه في مكان بعيد عن الآخرين ، أي بشكل أكثر سرية مما عليه الوضع في حالة الرجل العادي ، خشية أن يعرف مكان مواراة جثثه فيها بعد ذلك^(١٩) .

أما الغرض من دفن هذه الأشياء مع الميت فهو - كما يعتقدون - أن المتوفي سيعيش مرة ثانية وأنه سيحتاج إلى تلك الأشياء ، فلا ينقصه أي شيء ، فليديه مسكنه حيث يجعله مأواه ، وفرسه حيث تمدّه بما يحتاجه من الحليب ، وليديه حصانه الذي يمنّعه عند الحاجة إليه في سفراته ، ثم يستطيع بواسطة فرسه وحصانه أن يزيد من تعداد غيوله وأفراسه . قد يكون عدد الأفراس والخيول ، التي تدفن مع الميت ، أكثر من هذا العدد (أي أكثر من حصان وفرس) وكذلك بالنسبة للخيول التي تدبح على قبره ، وتعلق جلودها فوق الضريح .

ويبدو لنا أن مسألة دفن الميت ومعها أشياء من هذا القبيل ، ثم قتل أعداد من الخيول والأفراس ، وما يتعلق بذلك من اعتقادهم في الحياة الثانية ، هي عادة متبعة وتقليد منتشر لدى الأويغوريين والنيان وغيرهم من سكان مناطق أواسط آسيا . وحول هذا الموضوع يحدثنا ابن فضلان (ذلك الرحالة المسلم الذي عاش في أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع الهجريين/ والتاسع والعاشر الميلاديين ، والذي جاب قسماً كبيراً من أقطار أواسط آسيا) قائلاً : إنه عندما يموت الفرد منهم ، فإنهم يحفرون حفرة عظيمة يبلغ حجم المنزل ، ثم يأتون إليه ويلبسونه قرطه (السترة أو الجاكيت أو الدثار) ويقلدونه قوسه وبضعونه في حزامه ثم يضعون في يده قدحاً ،

مصنوعاً من الخشب ، وفيه شراب ، ويترك أمامه إناء خشبياً فيه شراب أيضاً . ثم يحضرون كل شيء له ، من حاجيات وأواني منزلية فيضعونها معه في تلك الحفرة ، والتي هي بمثابة منزل له . ثم يجلسون ذلك الميت في داخل المنزل ، ثم يعملون سقف تلك الحفرة من الطين ، وهي تظهر بمظهر القبة . بعدها يعمدون إلى تحويله فيقتلون مائة ، أو مائتين وأحياناً يذبحون واحداً منها فقط ، معتمدين في هذا الشأن على كثرة أو قلة ما يملكه ذلك المتوفي ، فيأكلون لحوم تلك الخيول ، ويتركون رموسها وقوائمها وجلودها وذبولها ، حيث يعلقونها على أعواد من الخشب فوق ذلك الضريح . أما الغرض من ذلك فهو أن هذه الخيول هي التي سيركبها - حسب زعمهم - إلى الجنة . وإذا ما كان الشخص المتوفي رجلاً شجاعاً ومقداماً ، وأنه كان قد قتل من الرجال واحداً أو اثنين أو أكثر ، فانهم ينحتون تماثيل من الخشب على كهبة صور الآدميين بعدد من قتلهم ، ثم يضعونها معه في داخل قبره ، ويقولون : «إني هؤلاء عبيده الذين سخدمونه في الجنة» .

وما إن يسمع أقرباء الميت هذه المقالة من ذلك الإنسان العجوز ، حتى يعمدوا إلى الخيول فيذبحوها ويأكلوا لحومها ، ثم يعلقون الباقي - كما شرحنا ذلك أعلاه - إلى جانب الضريح . ثم بعد هذه الحادثة يوم أو يومين ، يأتي إليهم ذلك الرجل المسن ، ويخبرهم بأنه رأى في منامه الميت ، وأنه قال له : «قل لأسرتي ورفاقي بأنني قد لحقت بأولئك الذين كانوا قد سبقوني ، والآن قد ارتفعت من عنائي» .

شاهد الراهب «جون البلاتو الكرمني» سفير «البابا اتوست الرابع» إلى بلاط الخان المغولي ، بأمر عينيه مراسم الدفن هذه عند المغول ، كما سمع ذلك ممن شاهدها . وهنا يضيف «جون» بأنه من الأشياء التي تدفن مع الميت حاجياته الخفية ، مثل ذهبه وفضته ، وكذلك سلاحه (القوس والسهام ، والرمح ، والخوذة ، والسيف) وملابسه . كذلك يدفن معه خدمه رجال ونساء . أما عريته المنزلية . فإنها تكسر ، وتلف بيته (هذا غير البيت الذي كان قد دفن معه) . كما أن أحداً لا يجرؤ أن يتفوه باسمه بعد وفاته ، ويظل ذلك الوضع قائماً بعد وفاته ،

حتى الجيل الثالث ، أي أن الميت يُنسى تماماً بمجرد وفاته ، ماعدا ما يقدم إلى روحه من طعام وشراب وغير ذلك .

أما المؤرخ الأرمني «كيراكوس» فيذكر أنهم يقرون بطن الخيل ، فيستخرجون اللحم دون العظام ، فيحرقون الامعاء والعظام ، ويحيطون الجلد حتى يصبح متكامل الجسم وكأنه حي ، ثم يبرؤون رأس خشبه كبيرة غليظة ، فيدخلونها من مؤخرته حتى تظهر من فيه ، فيعلقونها على مرتفع عال فوق القبر ، أو على شجرة كبيرة^(٢١) .

(ب) مراسم وطقوس دفن الرؤساء وكبار القوم : لا تختلف مراسم وتشييع ودفن رؤساء وكبار القوم في المجتمع المغولي اختلافاً كبيراً عن تلك التي تُجرى للموتى من الناس العاديين أو الأغنياء ، فعندما يتوفى الرئيس ، أو كبير القوم ، فإن المشيعين يذهبون بصفة سرية وفي تكتم تام بالجثثان إلى خارج المحميات ، وبعيداً عن المساكن . وهناك يقومون - بعد اختيار المكان المناسب - بإزالة العشب بعناية ، ومعه جذوره ، وما علق بها من طين ، أو تربة ، ثم يضعونها جانباً . وبعد ذلك يحفرون حفرة كبيرة جداً ، ثم يُجوفون حفرة أخرى لوضع الجثثان بها . كما يدفنون إلى أسفل من ضريح السيد أحب عبيده إليه حياً ، حيث يضطجع في ذلك القبر ليريه وجيزة ، ثم يؤخذ إلى الخارج كي يستعيد النفس ، ثم يعيدونه ، ويضطجع كما فعل في الحالة الأولى - وهكذا يكررون هذه العملية ثلاث مرات . فإن استطاع أن ينجو من الموت بعد المرة الثالثة ، فإنه يصبح رجلاً حراً طليقاً ، ويستطيع أن يفعل ما يفعله الأحرار ، كما أنه يصبح من الرجال ذوي الاعتبار والترتب العالية بين رجال المجتمع ، وإذا مكانة مرموقة بين أقارب وأصدقاء ذلك السيد المتوفي .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإنهم يدفنون معه مسكناً له وفرساً ومهراً ، وحصاناً ، وطعاماً وشراباً ، ومائدة ، وذهباً وفضة - كما هي الحالة بالنسبة للرجل المتوفي من الناس العاديين ، أو الأغنياء . ثم يعيدون العشب وما عليه من طين وتراب عالق به بعناية ، على ظهر تلك الحفرة ، فيصبح شكل الضريح ككل صغير ، ولا يبدو عليه أثر الحفر ، فلا يستطيع أحد معرفة المكان

وفي الحقيقة ، فإنه كلما كان الشخص المتوفي ذا مكانة كبيرة في مجتمعه كلما كبر حجم قبره تحت الأرض وكثر عدد ما يذبح على قبره من الخبيل وغيرها ، وما يذفن معه من الأتياع والأواني المنزلية ، وأمتعة يحتاجها للاستخدام في حياته الثانية ، فيحاول أقرباؤه أن يجعلوا - حسب اعتقادهم - حياته الثانية لا تقل عن وضعه ، وما كان عليه حاله في حياته الأولى قبل وفاته ، كذلك تزداد سرية مكان الدفن كلما كان المتوفي كبيراً في قومه وذويه .

(جـ) مراسم وطفوس ما بعد الوفاة والدفن : بعد وفاة المرء وبعد أن تم مراسم دفنه ، وطفوس نحر الخيل وعمل الأضحيان بالطريقة التي أوضحناها ، فإن المجتمع المغولي لا يتعامل مع أقرباء ذلك المتوفي حتى تتم عملية تنقيتهم وتطهيرهم بالنار ، تحت إشراف كهنة أو عرافين ، رجالاً كانوا أم نساء . ويتم عملية تنقيتهم بالطريقة التالية ، التي وصفها لنا «جون البلاتو الكريني» كما رآها هو ، وكان هو ممن نفى بتلك النار قبل أن يسمح له بالدخول على الخان المغولي .

يقول هذا القس : إنهم يوقدون نارين ، ثم يقيمون حربتين ، أو رحمين ، وتربط رأسا الرحمين بجبل بالقرب من تلك النارين ، ثم يربطون في هذين الرحمين حبالاً من البقرم (وهو قماش قوي جداً ، يستعمل لتجليد الكتب) . بعد ذلك يأتون بأقرباء المتوفي ، الرجال والنساء والأطفال ، ويجعلونهم يمرّون من تحت ذلك الخيل أو الشواج المربوط في الرحمين المنصوبين إلى جانبي النار ، ثم بالضرورة يصبح مرورهم من بين هاتين النارين ، وبعد أن يمر الأفراد ، يؤتى بجميع ما تملكه أسرة المتوفي ، من خيل وأفراس ، وثيران وأبقار وأغنام ، وماعز ، وجمال وغير ذلك ، ثم بالأمتعة من لباس ، وأواني ، وعربات ، ومساكن ، فتمرر جميع تلك الحيوانات والأمتعة من بين النارين ، ليتم تطهيرها ، وتنفي مما علق بها - حسب زعمهم - من أرواح شريرة نتيجة لوفاة ذلك المرء من تلك الأسرة .

ويقوم بالإشراف على عملية التنقية والتطهير هذه - كما قلنا - عرافون ، وغالباً ما يكونون من النساء الكاهنات . حيث تقف على جانبي النار امرأتان - كل واحدة على جانب من إحدى

النارين ، وفي أثناء عملية مرور الأفراد ، والمواشي ، والعربات والمنازل والأثاث ، تنضحان ماء على المارين ، وترددان تعاويذ معينة ، فإذا ما وقع شيء على الأرض ، أو انكسرت عربة ، أو سقط منها شيء ، أو وقع على الأرض حيوان من تلك الممتلكات أثناء عملية مرورها بين النارين ، فإن جميع ما يسقط أو يقع أو ينكسر يصبح ملكاً لخاتين المرأتين الواقفتين على جانبي النارين .

أما إذا أصابت صاعقة إنساناً وقتلته ، فلا بد أن يبقى كل فرد كان يسكن معه ، أو كان من أسرته بالنار ، وبالطريقة التي سلف ذكرها ، قبل أن يدخل معه أحد من بقية أعضاء مجتمعهم في أي نوع من أنواع المعاملات . فلا أحد يلمس خيمته ، ولا فراشه ، ولا عرسته ولا لبده ، ولا ملابسه ، ولا أي شيء من أشياءه الخاصة به ، إذ يعتبرون ذلك كله أشياء مزدرة ونجسة ، فلا تلمس حتى تبقى من تلك النجاسة التي علقت بها ، ومن أرواح شريرة تكن فيها ، وذلك من خلال تمريرها من بين نارين متقدتين^(٢٢) .



(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٣٦٠ .

(٢) معلومات وافية عن ابن الأثير ومؤلفه «الكامل في التاريخ» انظر ما قلناه في كتابنا «أوضاع الدول الإسلامية في الشرق الاسلامي» طبعه بيروت ١٤٠٩ هـ . ص : ٢٦ - ٢٧ .

- (٣) «تتكرّر كلمة تركية - مغولية ، تعني : الحامي المقدس : الإله ٦-٦ ، آي ، الرب العظيم ، الإله الخالد .
- (٤) «وليم الزركي ، رحلة وليم الزركي ، تحقيق ، دوسون «البعثة المغولية» ص ١٤٠ .
- (٥) نفس المرجع السابق ، ص : ١٤١ .
- (٦) «بنطيق كلام ماركوبولو في الخليفة على المجتمع الصيني الزراعي ، حيث كانت الصين تمثل جزءاً من إمبراطورية المغول القزاقية الأطراف .
- (٧) «ماركوبولو بوصف العالم» ج ١ / ص ١٧٠ - ١٧١ (نظراً عن «تاريخ المغول» ل : برتولد اسبولر ، ص . ص ١٧٤ - ١٧٥ .
- (٨) «حول هذا الموضوع ، انظر : جون البلاو الكرسي ، «تاريخ المغول» تحقيق ، دوسون «البعثة المغولية» ص ٨ - ٩ ، وليم الزركي ، «رحلة وليم الزركي» نفس المرجع ، ص ١٤٠ ، كذلك : و.و. روكهل «رحلة وليم الزركي إلى الأجزاء الشرقية من العالم» ، ص.ص : ٨٠ - ٨٢ ، الحاشية ٢ ج ١ . أ. بويل ، «أكيفية تقديم الحصان كغذاء عند المغول خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر» (المجلة الآسيوية المركزية) ١٩٦٥ م ، ج ١٠ ، قسم ٣ - ٤ ، ص. ص : ١٤٥ - ١٥٠ ج.ج. ساوندز «تاريخ الفتوحات المغولية» لندن ١٩٧١ م ، ص . ص : ١٣ - ١٤ .
- (٩) «ساوندز «تاريخ الفتوحات المغولية» ص : ١٣ .
- (١٠) «جون الكرسي ، «تاريخ المغول» تحقيق دوسون «البعثة المغولية» ، ص ١٢ .
- (١١) «الطومات وانية عن هذا الموضوع ، انظر : وليم الزركي ، «رحلة وليم الزركي» تحقيق ، دوسون ، «البعثة المغولية» ص. ص : ١٨٩ - ١٩٥ . وما جرى في خلال تلك المناقشة الدينية ، التي حضرها القس الرحالة نفسه .
- (١٢) نفس المرجع السابق ، ص ١٩٥ .
- (١٣) «لعل الجويني كان يقصد أنه لم يكن من أتباع أي دين سماوي معين ، فهو يعتبر «تكتيز خان» من أتباع الديانات الوثنية .
- (١٤) «الجويني ، جهانكشاي ، ج ١ / ص : ١٨ ، الترجمة الإنجليزية ، ج ١ / ص : ٢٦ .
- (١٥) «الجويني جهانكشاي ، ج ١ / ص . ص : ١٨ - ١٩ ، الترجمة الإنجليزية ، ج ١ / ص : ٢٦ .
- (١٦) «ابن العربي ، كرمكوري ابو الفرج ، تاريخ مختصر الدول ، ترجمة المؤلف من السريانية إلى اللغة العربية ، حققه ، صالحاني ، بيروت ، ١٩٥٨ م ، ص : ٢٣٠ .
- (١٧) «فينست البيوز (نظراً عن : روكهل «رحلة القس وليم الزركي» ص. ص : ٨٠ - ٨١ ، حاشية رقم ٢ في نفس الصفحتين .
- (١٨) «الجويني ، جهانكشاي ، ج ١ / ص ٢٥ ، الترجمة الإنجليزية ، ج ١ / ص ٣٤ .
- (١٩) «فينست (نظراً عن : روكهل «رحلة القس وليم الزركي» ص . ص : ٨٠ - ٨١ ، حاشية رقم ٢ .
- (٢٠) «استمدت في ذلك على الأستاذ : ج. أ. بويل ، «أكيفية تقديم الحصان كغذاء عند المغول في القرنين الثالث عشر والرابع عشر» ص. ص : ١٤٩ - ١٥٠ مع حواشيا ، الذي كان بدوره قد نقل عن ترجمة : أ. ب كوفلفسكي ، طبعة نيركف ، ١٩٥٦ م ، لعمل ابن فضلان ص : ٣٣٥ من المتن (ص ١٢٨) من الترجمة .
- (٢١) «حول هذا الموضوع ، انظر جون الكرسي ، «تاريخ المغول» تحقيق ، دوسون «البعثة المغولية» ص : ١٣ ، وليم الزركي «رحلة وليم الزركي» نفس المصدر ، ص : ١٠٥ - ١٠٦ «أكيراكوس الاكتنجت عن المغول» .
- (٢٢) «جون البلاو الكرسي ، «تاريخ المغول» تحقيق ، دوسون «البعثة المغولية» ص : ١٤ .